دَعْوَةُ الْمُسْتَشْرِقِيْنَ لترتيبِ القرآنِ وَفْقَ النزول دَوَافِعُها وَإِشْكَالَاتُه

محمد رضا الحوري*

منصور محمود أبو زينة

سلام جميل العمري

ملخص

يهدفُ هذا البحثُ إلى الكشفِ عن موقفِ المستشرقينَ من الترتيبِ المصحَفِيِّ للقرآن الكريم، وبيانِ دوافعِهِم الكامنة وراءَ دعوتِهم لإعادة ترتيبِ سُوَرِ القرآن وَفْقَ نزولِه، ثم الكشفِ عن الإشكالات العلميَّة والمنهجيَّة المُتَرَتِّبَة على هذه الدعوة. وقد توصَّلَتْ هذه الدراسةُ إلى عدَّة نتائج، منها: أنَّ المستشرقينَ لا يعترفونَ أبدًا بهذا الترتيبِ المُصْحَفيِّ، ويُشَكِّكونَ في صحَّتِه، ويزعُمونَ أنَّه ترتيبٌ مُصْطَنَعٌ فَوْضَوِيٌّ غيرُ متناسق!! ومنها: أنَّ المستشرقينَ كانتْ لهم دوافعُ متعدِّدَةٌ وراءَ الدعوة لإعادة ترتيب سُوَرِ القرآن وَفْقَ النزول، تدور معظمُها حول نَزْعِ قَداسة القرآن، والطعنِ في مصدره وإعجازه. ومنها: أنَّ دعوةَ المستشرقينَ إلى إعادة ترتيب سُوَرِ القرآن وَفْقَ النزول تنطوي على إشكالاتٍ كثيرة، كعدم وجودِ مستَنَدٍ صحيحٍ يُعْتَمَدُ عليه في ترتيب القرآن نُزوليًّا، وكخطورة فتحِ بابٍ آخر، وهو المطالبةُ بإعادة ترتيبِ الآياتِ وَفْقَ نزولِها!

الكلمات الدالة: ترتيب القرآن، الاستشراق، شبهات المستشرقين.

* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك.

تاريخ تقديم البحث: 2017/5/20م. تاريخ قبول البحث: 2018/9/13 م.

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2019 م.

Orientalists' call to order Quran based on Decency
Motives and Problems

Mohammed Rida Alhori
Mahmoud Mansour Abn Zina
Salam Jameel Alomari

Abstract

The aim of the study was to identify the position of orientalists with respect to the order of the Holy Quran, clarify their motives behind this position to reorder Quran based on decency, then to identify the scientific and systematic problems resulting from such call. The study concluded with several results, including that orientalists do not acknowledge this order and question it; claim that it is chaotic and lacks coherence. Also, orientalists had many motives for such call, and that this call to reorder the Holy Quran based on decency is concerned with removing secrecy from it, to question its source and miraculous nature. Furthermore, such call provokes many problems, including lack of authentic source to order the Holy Quran based on decency, and that will pave the way for other calls such as ordering verses based on their decency.

Keywords: Quran order, Orientalism, Orientalists' Suspicion.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ والمرسلين وعلى آله وصحبه والتّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فقد أدرك علماءُ المسلمين في كلّ عصرٍ أنَّ القرآن الكريم هو مأدبة الله لهم، وأنه الحبل المتين الذي يصل الخالق بالمخلوق، وأن به صلاحَ البشرية في كل حين؛ لذا أوْلَوْه اهتمامهم وعنايتهم، وبحثوا في كلّ ما يتصل به. ومن الموضوعات التي حظيت باهتمام العلماء قديمًا وحديثًا ترتيبُ سور القرآن وآياته.

وقد أجمع العلماءُ على أنّ ترتيبَ الآيات في السور كان بالتوقيف؛ لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة. وأما بالنسبة للسور فقد ذهب أهل التحقيق قديمًا وحديثًا إلى أنّ ترتيبها كان بالتوقيف كذلك، وأنّ الاختلافَ فيها غيرُ مُعْتَدٍّ به. مع اتفاقهم جميعًا على أنّ ترتيبَ سور القرآن على ما هي عليه اليوم لا تَحِلُّ مخالفتُه؛ لتلقي الأمَّة له بالقَبول.

وعلى الرّغم من هذه الحقيقة فإنّنا نشهَدُ ظهور بدعةٍ معاصرةٍ تولّى كِبْرها المستشرقون؛ وهي الدعوةُ إلى إعادة ترتيب سور القرآن وآياته على وَفْق النزول، متذرِّعين بعَدَدٍ من الحُجَج والمُسَوِّغات التي ظاهرُها الرحمةُ والحرصُ على الفهم الصحيح للقرآن، وباطنُها الحقدُ والتشويهُ والإلحاد في آيات الله، وإسقاطُ التراثِ وأعلامِه. وكان من آثار هذه الدّعوة أنْ تأَثَّرَ عددٌ من أبناء المسلمين بها؛ فقاموا بمحاولاتٍ عديدةٍ لتفسير القرآن وَفْقَ نزوله. وهم إزاء هذا العمل فريقان: منهم مَنْ كانت نيّتُه حسنة، ومقصده طيِّبًا. كالمحاولة التي قام بها (دَرْوَزَة)، و(حسن حبنكة الميداني)، و(مُلَّا حويش).

ومنهم من كان بوقاً من أبواق المستشرقين، يتَّبعُهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ (Inb Al-Atheer, 1979) كمحاولة (حسن حنفي)، و(الجابري) وغيرهما. وقد قامت دراساتٌ عديدةٌ لتقويم هذه الأعمال سلبًا وإيجابًا.

ولمّا كان منشأُ هذه الدعوة وأصلُها المستشرقين، جاءت هذه الدراسة في محاولة للكشف عن الدوافع الحقيقيَّة وراء دعوة المستشرقين لإعادة ترتيب سور القرآن وآياته حسب النزول، والوقوف على أهمّ الإشكالات المنهجية والعلمية المترتبة على الأخذ بهذه الطريقة.

مشكلة الدراسة: تتمثل مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الآتي: ما دوافعُ المستشرقين في دعوتهم لإعادة ترتيب سور القرآن وآياته وَفْقَ النزول، وما الإشكالات المترتبة على ذلك؟

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:

1. الكشفُ عن موقف المستشرقين من الترتيب المُصْحَفِيِّ للقرآن.
2. بيانُ دوافع المستشرقين في دعوتهم لإعادة ترتيب القرآن وَفْقَ النزول.
3. إبرازُ الإشكالات المترتِّبَة على دعوة المستشرقين لإعادة ترتيب القرآن وَفْقَ النزول.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات التي تناولت موقف المستشرقين من القرآن الكريم وعلومه إلا أننا لم نقف على دراسة تعالج الفكرة التي تتناولها دراستُنا هذه، من حيثُ الوقوف على الدوافع والإشكالات.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة لتحقيق أهدافها المنهج الوصفي لبيان حقيقة موقف المستشرقين من الترتيب النزولي للقرآن، والمنهج التحليلي للوقوف على دوافع هذا الموقف وإشكالاته، والمنهج النقدي لمناقشة أقوال المستشرقين ونقدها نقدًا علميًّا.

خطة الدراسة:

جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة، وتشتملُ على أهميَّة الدراسة ومشكلتها وأهدافها ومنهجها.

التمهيد: مَفْهومُ (الترتيب النزوليِّ) وموقفُ العلماءِ المسلمينَ منه

المبحث الأول: موقف المستشرقين من الترتيب المُصْحَفِيِّ للقرآن.

المبحث الثاني: دوافع المستشرقين لترتيب القرآن وَفْقَ النزول.

المبحث الثالث: الإشكالاتُ المُتَرَتِّبَة على ترتيب القرآن وَفْقَ النزول.

الخاتمة، وتشتملُ على أهمِّ النتائج التي يتوصَّلُ إليها الباحثون.

التمهيد:

مَفْهومُ (الترتيب النزوليِّ) وموقفُ العلماءِ المسلمينَ منه

من الموضوعات التي حظيت باهتمام العلماء قديمًا وحديثًا ترتيب سور القرآن وآياته، وقد كان ترتيب الآيات في السور محلَّ اتفاق بين العلماء لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة التي يتجلّى فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد نزول كل نجم جديد من نجوم كتاب الله يشير إلى مواضع الآيات في سورها، كأن يقول: (ضعوا هذه الآيات في سورة كذا، بعد آية كذا وقبل آية كذا)، فيُحَدِّدُ بدقَّة اسم السورة، وموضع النازل فيها (Muslem, WD., Bukhari, 1422AH & Tabarani, 1415AH)

أما ترتيبُ السُّوَر، فقد تلقَّت الأمَّةُ الترتيبَ المصحفيَّ المُجْمَعَ عليه بالقَبول، وصار عُرفًا لا يُغَيَّر، لكنّ آراءَ العلماء اختلفت في أصل هذا الترتيب أتوقيفيٌّ هو أم توفيقيٌّ؟ بين قائل بهذا وقائل بذاك، وقائل بهما معًا؛ لورود بعض الأدلة التي تذكر ترتيب بعض السور دون جميعها. فهم في المحصِّلة متفقون على أن هذا الأمر أصبح مُجْمَعًا عليه بغض النظر عن أصله؛ لذا تلقَّتْه الأمَّةُ بالقَبول (Bukhari, 1422AH & Taha, 2012).

وقد ذكروا ضمن كتبهم بعض الروايات الواردة في ترتيب النازل من القرآن الكريم بأسانيدها، ولكنهم لم يُعَوِّلوا عليها؛ لعلمهم بأنها واهية سندًا ومتنًا، ولكنهم ذكروها استئناسًا حتى يعلم المتأخرون أن هذا الأمر قد طُرِق بابُه؛ فلا يضيِّعوا أوقاتهم في طرق أبواب لا فائدة منها؛ فذكروا لنا الروايات مُسْنَدَةً على المنهج المتَّبَع: (مَنْ أَسْنَدَ لكَ فقد أحالَكَ). ولم ينادِ أحدٌ من المتقدِّمين بإعادة ترتيب القرآن وفق نزوله؛ لعلمهم أن هذا غيرُ ممكِن، فضلًا على أنْ لا دليل عليه، مع أنَّهم اهتمُّوا بأسباب النزول، ومعرفة بعض أزمان النزول إجمالًا لا تفصيلًا، بحسب ما تيسَّر لهم، وبحسب ما تأكَّدوا من صحَّتِه.

وفي هذا التمهيد نعرِضُ لمفهوم (الترتيب النزوليِّ) في اللغة والاصطلاح، وآراء سادتنا العلماء في ترتيبِ القرآن وَفْقَ نزولِه.

أولًا: مفهوم الترتيب النزولي لغةً واصطلاحاً.

الترتيبُ لغـــةً من الجـــذر (رَتَبَ)، "رَتَبَ الشيءُ يَرْتُبُ رتُوبـــــاً، وتَرَتَّبَ: ثَبَتَ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ"(Ibn Manzoor, 1414AH) "وَرَتَّبْتُهُ أَنَا تَرْتِيباً أَثْبَتُّهُ"(Zubaidi, WD) "(رَتَّبَهُ) أَثْبَتَهُ وَأَقَرَّهُ وَجعله فِي مرتَبَته، وَيُقَال: رَتَّب الطَّلَائِع فِي الْمَرَاتِب والمراقب (ترَتَّبَ) يُقَال يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كَذَا يسْتَقرُّ وَيَنْبَنِي"(Al-Zayyat, WD)

فمعنى الترتيب في اللغة يدور على ثبات الشي واستقراره في موضعه، وتأسيسًا على ذلك بُنِي عليه غيرُه وترتَّبَ بعدَه.

والنزولُ لُغَةً من الجذر (نَزَلَ)، يُقال: "(نَزَلَ) نزولًا هَبَط من عُلْوٍ إِلَى سُفْل، (أنزل) الشَّيْء جعله يَنْزِل، وَيُقَال: أنزل الله كَلَامه على أنبيائه: أوحى بِهِ"(Al-Zayyat, WD) فالنزول الهبوط من علو، وهكذا يهبط النازل شيئًا فشيئًا إذا تعدَّد.

وأما الترتيبُ النزوليُّ اصطلاحًا، فإنَّ العلماءَ يتكلَّمُونَ عنه إجمالًا باعتباره أمرًا مفهومًا مُدْرَكًا من حيث المسمى والواقع، في كتب علوم القرآن والدراسات القرآنية دون أن يتطرَّقوا لتعريفه أو وضع حَدٍّ له؛ لذا لا نكاد نَجِدُ تعريفًا له في الكتب التي تبحثُ هذا الموضوع.

وإذا أردنا أن نضع له تعريفًا، فيمكن القول: إنّ الترتيبَ النزوليَّ هو: (ترتيبُ سُوَرِ القرآن الكريم وآياتِه وَفْقَ أَوَّلِيَّةِ نزولِها، بوضع أوَّلِها نزولًا، ثم الذي يليهِ، وهكذا من بداية البعثة إلى أن قُبِضَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم).

ثانيًا: آراءُ العلماءِ المسلمينَ في ترتيبِ القرآن وَفْقَ النزول

تُعَدُّ مسألةُ الترتيب النزوليِّ موضوعًا قديمًا جديدًا، عَرَضَتْ له كتب علوم القرآن بمفهوم يختلفُ عمّا يتمُّ تناوله اليومَ عند المعاصرين؛ فقد اعتنى المسلمون بالقرآن الكريم وبكل ما يتعلق به، فاهتموا بأسباب النزول مكانِها وزمانِها، وفي ذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيرُه، ما أُنزِلَتْ سورةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلَمُ أين أُنْزِلَتْ، ولا أُنْزِلَتْ آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلَمُ فيمَ أُنْزِلَتْ، ولو أعلَمُ أحدًا أعلَمَ مني بكتاب الله، تبلُغُهُ الإبل لركبتُ إليه"(Bukhari, 1422AH)

ولموضوع ترتيب النزول علاقة متداخلة مع العديد من موضوعات علوم القرآن، فعلوم القرآن متعاضدة وغير متناقضة. وقد أورد الزركشيُّ في (البرهان) والسيوطيُّ في (الإتقان) ترتيبًا للسور

حسب نزولها، فنَقَلَا في ذلك روايات متعدِّدَة تكلَّمَ العلماءُ في تضعيفها وتوهينها، كما أنّ هذه الروايات غير متفقة في ذكرها السورة وطريقة ترتيبها (Al-Zarkashi, 1394AH & Suyuti, 1394AH) . ولكن لم نَجِدْ قبلَ المستشرقين وتلاميذهم من يدِّعي ضرورةَ ترتيب سور القرآن ترتيبًا نزولِيًّا. وإذا أردنا إحصاء الآراء في هذا الأمر فإننا نجدها منحصرةً في رأيين هما:

الرأي الأول: أنَّ الترتيب حسب النزول لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم تثبت أحاديث صحيحة واردة عن رسول الله مباشرةً تذكر ترتيب سور القرآن كلِّه وَفْقَ نزولها. وهذا الذي عليه جمهور العلماء(Al-Baqalani, 1422AH & Sayed, 1412AH) ؛ إذ قَرَّرُوا قديمًا وحديثًا أنَّ ترتيب القرآن حسب نزوله غيرُ ممكن ولا مُتَيَسِّر؛ لذا لم ينادِ به أحدٌ مع تقريرهم أنَّ بعضَ السور أو الآيات معلومةُ الترتيب من حيث النزول إلا أنها قليلةٌ جدًّا.

نقل السيوطي عن ابن سيرين أنه سأل عكرمة عن جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه "قال: فقلتُ لعكرمة: أَلَّفُوهُ كما أُنْزِلَ الأَوَّلَ فالأَوَّلَ؟ قال: لو اجتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يُؤَلِّفُوهُ ذلك التأليفَ ما استطاعوا! "(Suyuti, 1394AH)

ويُفْهَمُ من كلامِ عكرمة رحمه الله أنَّ تأليفَ القرآن وفْقَ نزوله أمرٌ متعذِّرٌ لا يمكن حصوله. وبناءً على هذا الفهم يمكن القولُ: إذا كان ترتيبُ القرآن وفق النزول متعذِّرًا في ذلك الزمن مع توافرِ عددٍ من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل، وعَلِمُوا الأسباب. وتوافرِ عدد كبيرٍ من علماء التَّابعين الآخذين عن الصحابة علومَهم، وقيامِ عصر الرواية؛ إذا كان ذلك متعذّراً في ذلك الزمان فكيف يكون الحال في العصور بعدهم؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ في كلام عكرمة رحمه الله إشارةً إلى أنَّ ترتيب القرآن وفق النزول ليس مأمورًا به، ولا يتوقّف فهم القرآن عليه؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكان الصحابة –رضوان الله عليهم– وتلاميذهم من التابعين –رحمهم الله– من أحرص النّاس على ذلك.

ومن هنا وجدنا سيد قطب يقول: "إنَّ الترتيبَ الزمنيَّ للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء، اللَّهُمَّ إلا من ناحية أنَّ هذا قرآنٌ مكيٌّ، وهذا قرآنٌ مدنيٌّ على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة، فأمَّا الترتيبُ الزمنيُّ المقطوعُ به من ناحية زمن نزول كلِّ آية أو كلِّ مجموعة من الآيات أو كلِّ سورة، فيكاد يكون متعذِّرًا، ولا يكاد يجد الإنسانُ فيه اليومَ شيئًا مستيقَنًا، إلا في آيات معدودات، تتوافرُ بشأنها الروايات، أو تَقْطَعُ بشأنها بعضُ الروايات.." (Sayed, 1412AH)

ولهذا نجد أنَّ علماء علوم القرآن قديمًا وحديثًا حين يبحثون موضوع ترتيب سور القرآن، يتناولون الترتيب المصحفيَّ لا النزوليَّ، وعليه تدور الآراء بين كونه توقيفيًّا أو توفيقيًّا، أو أنَّ معظمه توقيف وبعضَه اجتهاد (Al-Zarkashi, 1394AH & Suyuti, 1394AH) . على أنَّ بعض العلماء المعاصرين نادى بتفسير القرآن حسب نزوله، لكنّ جميعَ من قال بالفكرة أو طَبَّقَها كان هدفُه التفسيرَ النزوليَّ لا الترتيبَ النزوليَّ.

ومن العلماء الذين طَبَّقُوا فكرة (التفسير النزولي) (د. محمد عزت دروزة)، الذي قال في مقدمة تفسيره: "وقد قَلَّبْنا وجوه الرأي حول هذه الطريقة، وتساءلنا عما إذا كان فيها مساس بقدسيَّة المصحف المتداول، فانتهى بنا الرأي إلى القرار عليها؛ لأن التفسير ليس مصحفًا للتلاوة من جهة، وهو عمل فنيٌّ أو عِلْميٌّ من جهة ثانية، ولأن تفسير كل ســـــورة يصح أن يكون عملًا مستقلًا بذاته، لا صلة له بترتيب المصحف، وليس من شأنه أن يَمَسَّ قدسيَّة ترتيبه من جهة ثالثـــة." (Drauza, 1383AH)

وذكر في هذه المقدمة أنه استفتى أهل العلم في بلده، فأفتوه بجواز ذلك، قال: "رأينا أن نستوثق من صحة ما ذهبنا إليه فاستفتينا سماحة الشيخ أبي اليسر عابدين مفتي سورية، والشيخ عبد الفتاح أبا غدة، الذي كان من المرشحين لإفتاء مدينة حلب، فتلقينا منهما جوابًا مؤيِّدًا، حيث قال الأوَّلُ في جوابه: إنَّ التأليف والتصنيف تابع لأغراض المؤلفين حسبما يعرض لهم من إشكال؛ لإظهار الفوائد التي يطّلعون عليها، وليس التفسيرُ بقرآنٍ يتلى حتى يراعى فيه ترتيب الآيات والسور، فقد يَعِنُّ للمفسِّر أن يفسِّرَ آية، ثم يتركَ ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسِّرُ سورة ثم يترك ما بعدها اعتمادًا على فهم التالي. ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم. وحيث قال الثاني: إنَّ شبهة المنع لهذه الطريقة آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف اليوم من الترتيب المُجْمَعِ عليه، والمتواتر إلى الأُمَّة نقلُه جيلًا بعد جيل. ودَفْعُ هذه الشُّبْهَةِ أنَّ المنع يَثْبُتُ فيما لو كان هذا الصنيع مسلوكًا من أجل أنْ يكون هذا الترتيبُ مصحفًا للتلاوة، أي ليتلوَ الناسُ القرآن على النحو الذي سلكتُموه. أَمَا وإنَّ الغرض للمفسِّر والقارئ معًا غيرُ هذا فلا مانع من سلوكه إطلاقًا" (Drauza, 1383AH)

ومن هؤلاء (ملا حويش) الذي يقول بأن ترتيب السور توقيفيٌّ فـ"السور والآيات كانت مرتَّبَةً ومجموعة على ما هو في المصاحف الآن، وهو أمرٌ توقيفيٌّ لا مجالَ للرأي فيه" (Al-Ani, 1382,

(1383AH ثم ذكر أنَّ فِعْلَه عبارةٌ عن تفسير، لا طلبٌ لإعادة ترتيب سور القرآن وآياته، فقال: "فعزمْتُ متوكِّلًا على الله تعالى الذي لا يُخَيِّبُ من رَجاه، مستمِدًّا من روحانيَّةِ صفيِّه ومجتباه، على تفسيره على ذلك المنوال، لما رأيت فيه من الفوائد الجليلة التي سَتَقَرُّ بها عينُ القارئ إن شاء الله" (Al-Ani, 1382AH)

ومن هؤلاء كذلك (عبد الرحمن الميداني)، فقد طرح فكرته في كتابه (قواعد التدبُّر الأمثل)، ثم طَبَّقَها في تفسيره (معارج التفكر)، وقال عن فكرته: "على متدبِّرِ كتاب الله أن يجتهدَ في تَتَبُّعِ مراحل تنزيل القرآن، ويبنيَ فهمه على أساس تدرُّج التشريع؛ حتى لا يقع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرُّج التشريع، مع أنه قد نزل بعدها تكميل أو بيان كاشـــف لأحكـــام المرحلـــة اللاحقة" (Al-Midani, 2009)

وقال أيضًا: "إنَّ مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه وملاحظتها لدى المتدبر تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع بها بعض المفسرين، فبعضهم قد يأتي بقصص مدنية فيضعها شرحًا أو سببًا لنصٍّ مكيٍّ، ويُحَمِّلُ بذلك النصَّ القرآني ما لا يحتمل ... وتدبُّرُ القرآن مع مراعاة مراحل التنزيل، وملاحظة ترتيب نزول الآيات، يَجْلِبُ نفعًا كبيرًا للمتدبِّر" (Al-Midani, 2009)

ففكرتُهم الأساسُ في صنيعهم هذا التفسيرُ والتدبُّرُ، وكلُّ ما يعين المسلم على فهم كلام الله وتطبيقِه، وفقَ ما أراد الله سبحانه. وما منهم مِن أحدٍ دعا إلى تَركِ ترتيبِ القرآن أو اعتبار الموجود ليس صوابًا، بل نجدُهم متَّفِقين على صحّةِ ما وَصَلَنا من ترتيب القرآن، وعلى وجوب التزامِه لأنّه توقيف من عند الله.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أمرٍ بالغ الأهمية وهو أنّ هناك فرقاً بين القول بضرورة إعادة ترتيب سور القرآن وآياته وفق نزوله باعتباره الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل في فهم القرآن، وإدراك أسراره، وأنّ أيّ مفسّر لا يراعي هذا المسلك فمسلكه مردود مرذول كما هو مسلك المستشرقين . وبين القول بأنّ ترتيب سورة القرآن وآياته وفق النزول منهج من مناهج متعددة لتدبر القرآن وتفسيره كما هو الحال في الدراسات الموضوعية المعاصرة للقرآن.

فمما لا شكّ فيه أنّ المسلك الأول مردود،لما يترتب عليه من إشكالات كبيرة سنذكرها في هذه الدراسة. وأما المسلك الثاني فمقبول بضوابطه مع ضرورة التأكيد على أن السالك لهذا المنهج لا يقطع بصحة منهجه وتخطئة المناهج الأخرى الموافقة لترتيب

الرأي الثاني: المطالبةُ بإعادة ترتيب القرآن وفق الترتيب النزولي وهو ماذهب إليه بعض من ينتسبون للعلم أو من هم في مناصب علميَّة في عصرنا. منهم يوسف راشد الذي قال: "إنَّ ترتيب القرآن في وضعه الحاليِّ يُبلْبِلُ الأفكار، ويُضَيِّعُ الفائدة المطلوبة من نزول القرآن؛ لأنه يخالف منهج التدرُّج التشريعي الذي روعي في النزول، ويُفْسِدُ نظام التسلسل الطبيعي للفكرة؛ لأن القارئ إذا تنقَّلَ من سورة مكيَّة إلى سورة مدنيَّة، اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيدٍ إلى جوٍّ غريب عن الجوِّ الذي كان فيه" (Draz, 2004) .

ومن الداعين إلى ذلك أيضًا الوزير الجزائري نور الدين بوكروح الذي دعا إلى إعادة النظر في ترتيب سور القرآن وترتيبها وفق النزول فقال: "كلُّ الناس يعرفون أنّ ترتيب سور القرآن تنقسم بحسب مكان النزول إلى مكيَّة ومدنيَّة، وكانت دائمًا تدور في ذهني فكرة أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عاش في مكة 13 سنة، ثم هاجر إلى المدينة، وكان من المنطق أن تكون 86 سورة الأولى، بداية من العلق إلى ما قبل سورة البقرة، نزلت في مكة، أما بعد الهجرة، أي عشر سنوات التي بقيت من فترة الوحي، كلها جاءت متسلسلة في المدينة ... ولأسباب خاصة وموضوعية حاولت إعادة ترتيب القرآن دون أن تكون لديَّ معطيات، فقمت بإعادة نسخ القرآن يدويًّا، وأنت تعلم أنَّ القرآن الذي بين أيدينا هو قرآن عثمان؛ فكنت أتساءل دائمًا لماذا لا يكون قرآن أبي بكر أو قرآن عمر أو علي...، ظلت تلك مجرد أفكار تجول بخاطري، وكنت يومها مستمرًّا في الكتابة في شؤون أخرى، ومع ظهور الانترنت في التسعينيات، شرعت في إعادة ترتيب سور القرآن، مستعينًا بما انتهى إليه الأزهر سنة 1923، حينما وضع بين أيدي المسلمين الترتيب الأصليَّ للقرآن، مثلما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، فاعتمدت ترتيب الأزهر، وحاولت دراسة القرآن من خلال هذه المقاربة والتسلسل، لأكتشف أنَّ نظرتي تغيَّرت، وأيُّ إنسان فوق الأرض يقرأ القرآن مثلما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم يحدث له ما حدث لي ... أنا لم أطالب في مقالاتي بتعويض القرآن الذي بين أيدينا بقرآن آخر، وإنما أرى أنّ الفائدة التي تتحقق لمن هو منشغل بهذه القضايا عندما يدرس القرآن مثلما فعلت أنا، ستكون أكبر، وستتبلور في ذهنه أفكار أوضح"

ومن هؤلاء محمد عابد الجابري في تفسيره (فهم القرآن الحكيم–التفسير الواضح حسب ترتيب النزول). الذي كان في عمله هذا يستقي من ساقية المستشرقين وعنها يصدر. وقد جاء تقسيمُه للسور على مراحل، موافقًا لما ذهب إليه المستشرقون (Jabri, 2008)

فمن ذهب لمثل هذه الفكرة –وهم فئة قليلة– ممن ينتسب للإسلام، ليس منهم أئمَّةٌ أفنَوْا حياتهم في تدريس ودراسة القرآن وعلومه، وتقليب أفكاره ومضمونه؛ فظهرت لأحدهم الحاجة المُلِحَّةُ لذلك، أو أرادَ أن يبعث الأمة من سُباتها علَّها تقتربُ من كلام ربِّها، فتتعَبَّدُه على نهج سلفها الأوَّل، بتدرُّجٍ مواكب للأحداث، أو وَجَدَ أنَّ علم المناسبات عِلْمٌ هَشٌّ ينقضُ آخرُه أوَّلَه فلا مجال لتدريسه ولفت النظر إليه، وعلينا أن نعيد الأُمَّةَ إلى ما كان عليه أهل العصر الأول؛ لنقتفي أثرَهم، ونسيرَ على وفق ما اهتدوا به!! لم يكُنْ شيءٌ من ذلك عند هؤلاء، ولهذا لا يؤخذ كلامُهم، ولا يعتمد عليه.

كما أنّ كلام الوزير قد اشتمل على مغالطاتٍ واضحةٍ، من أبرزها أنّه ينسب القرآن للصحابة، في إيحاء إلى أنهم هم الذين أَلَّفُوه ورَتَّبُوه كلٌّ على وفق هواه، كما يشير إلى أن هناك مصاحف متعدِّدة غير متطابقة؛ وذلك حينَ يذكر أن هذا المصحف الذي بين أيدينا مصحفُ عثمان لا مصحف أبي بكر أو عمر أو علي!! ولا شكّ أنَّ في هذا الكلام طعنًا في القرآن وتوثيقه، كما أنّ فيه طعنًا في الصحابة رضوان الله عليهم. وهذا الكلامُ لا يقوله إلا مَنْ جَهِلَ عنايةَ الأُمَّة بالقرآن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا الحاضر، تلك العناية التي لم يَحْظَ بها كتابٌ في الدنيا سوى القرآن.

المبحث الأوَّل: موقفُ المستشرقين من الترتيب المُصْحَفِيِّ للقرآن

منذ أنزلَ اللهُ تعالى كتابَه على نبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، كانَ هذا القرآنُ ولا يزال "هدفًا لأعداء الإسلام، يُسَدِّدُونَ إليه سِهامَ المطاعن، ويتَّخِذون من علومه مَثارًا للشُّبهات، يُلَفِّقُونَها زورًا وكذبًا، ويُزَوِّجونَها ظلمًا وعُدوانًا" (Zarqani, WD)

ومن أبرز أعداء القرآن المستشرقون، ومن أخطر القضايا التي أثارها المستشرقون حول كتاب الله قضيَّةُ ترتيب سُوَرِه؛ فعلى الرغم من أننا نجدُ تعدُّدَ أقوال علماء المسلمين في مسألة ترتيب السور بين فريق قائل بالاجتهاد، وآخرَ بالتوقيف، وثالث بهما معًا، ونجدُهم بعدَ ذلك مجتمعين على كون هذا الترتيب –مهما كان ابتداءً– هو الترتيبَ الذي تلَقَّتْهُ الأُمَّةُ بالقَبول؛ فلا يجوز لأحد بعد تلك الحقبة أن يُغَيِّر الترتيب المتعارف عليه عند المسلمين مهما كان السبب.. على الرغم من هذا الموقف الواضح لعلماء المسلمين تُجاه هذه المسألة إلا أننا نجدُ المستشرقين لا يعترفون بالترتيب المُصْحِفِيِّ أبدًا، ويدَّعون أنَّ القرآن الكريم لم يُدَوَّنْ أَلبَتَّةَ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان قد كُتِبَ شيءٌ من القرآن، فالذي كُتِبَ هو العهد المدنيُّ لا المكيُّ. أما التدوين الرسميُّ

عندَهم، فلم يكن إلا في عهد عثمان رضي الله عنه، وبعضُهم يرى أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

يقولُ (بروكلمان): "ولعلَّ نُجومًا مُتَفَرِّقَةً من الوحي كانتْ قد كُتِبَتْ في حياة الرسول، ولكنَّ أكثرَ الوحي كان يُرْوَى بلا رَيْبٍ شِفاهًا من الذاكرة فحسب. فلمَّا غاضَ بوفاةِ الرسول مَنْبَعُ الوحي، الذي كانَ قيِّمًا على حياة الأُمَّة، أجمعَ المسلمونَ كلمتَهُم على تسجيلِ كلِّ ما كانَ مُمْكِنًا جَمْعُهُ بَعْدُ من القِطَع والأجزاء ... لقد جُمِعَتْ قديمًا بلا ريبٍ سُوَرٌ مُتَفَرِّقَة في مجموعاتٍ تتميَّزُ بأحرُفٍ من الهجاء في فواتحها، فبَقِيَتْ لذلكَ على تأليفِها. ومن أقدَمِ هذه السُّوَر وأهمِّها على وجه الخصوص مجموعةُ (آل حاميم)، التي رُوِيَ أنَّ ابنَ مسعودٍ أبقاها على طولِها في الجمع الأوَّل، برغمِ أنَّه كانَ يُقَسِّمُ سُوَرًا أُخرى لطولِها" (Brockelmann, 1977)

ثم تحدَّثَ بعد ذلك عن الجمع العثمانيِّ فقال: "وقامَ زيدٌ بعدَ ذلك بجَمْعٍ ثانٍ للقرآن، رَتَّبَ فيه السُّوَرَ حسبَ طولِها، وابتدأَ بأطولِها بعدَ الفاتحة، التي وَضَعَها على رأس السُّوَرِ كلِّها. وعلى هذا المنوالِ جَمَعَ القرآنَ أيضًا أُبَيُّ بنُ كعب، والمقدادُ بنُ عمرو، وعبدُ الله بنُ مسعود، وأبو موسى عبدُ الله الأشعري" (Brockelmann, 1977)

وهاهو (بلاشير) يَشَكِّكُ في صحَّةِ الترتيبِ المصحفيِّ للقرآن، ويُوَجِّهُ إليه انتقادات، ويزعُمُ أنَّه فَوَضَوِيٌّ مضطرِب! فيقولُ في مقدِّمة ترجمته لمعاني القرآن: "ينقسَمُ القرآنُ – كما هو في المصحفِ العثماني_ إلى مائةٍ وأربعةَ عشرَ قسمًا، كلٌّ منها يُسَمَّى (سورة)، وهذا التقسيمُ يرجعُ إلى عهد محمد. وكلُّ قسمٍ من هذه الأقسام هو في الحقيقة تركيبةٌ مصطَنَعَةٌ مُكَوَّنةٌ من عِدَّة نصوص، وهذا التركيبُ في معظم الحالات يبدو أنه أيضًا من عَمَلِ محمد ... والمائةُ والأربعةَ عشرَ قسمًا الواردةُ في مصحف عثمان مُرَتَّبَةٌ بوجهٍ عامٍّ ترتيبًا طُوليًّا تنازُلِيًّا، ما خلا السورةَ الأولى (الفاتحة) التي رُغْمَ عدمِ تجاوزِها تسعَ آياتٍ تُمَثِّلُ ما يُشْبِهُ (قانونَ الإيمان). وهذا الترتيبُ العجيبُ الذي ربَّما كانَ راجعًا لتأثيرٍ آراميٍّ موجودٌ في مصاحفَ أخرى غيرِ معتَمَدَة، كمصحف ابن مسعود. وقد رأينا كيفَ أنَّ الترتيبَ التاريخيَّ للقرآن قد عَبِثَ به محمدٌ نفسُه جزئيًّا في داخل السور، ثمَّ كانَ من جَرَّاءِ الترتيبِ المُتَّبَعِ في مصحف عثمان أن ازدادَ اضطرابًا" (Ibrahim, 2003) .

وأمَّا المستشرقُ الفرنسي (جاك بيرك)، فقد قامَ بترجمةٍ للقرآن الكريم، وأثارَ في مُقدِّمةِ ترجمتِه عدَّة قضايا، منها ما يتَّصِلُ بتجميعِ القرآن وترتيبِه، فقال: "إنَّه وَفْقًا للمصادر التراثيَّة فإنَّ تدوينَ القرآن قد بدأَ مع بداية الرسالة، وسُرعانَ ما أدَّى ذلك إلى تجميعات، وقد ظَلَّتْ هذه المحفوظاتُ مُجَزَّأَة، فقد كانَ المسلمونَ يَرَوْنَ أنَّ ذاكرةَ الرواةِ أكثرُ صدقًا من الوثائق، وذلك نظرًا للأهميَّةِ التي تُضْفيها تلكَ المجتمعاتُ على الصوتِ الآدمي. ولم تَتِمَّ عمليَّةُ التدوين النهائيَّةُ من مختلِفِ المصادر إلا في عهد عثمان، ذلك الوقتُ الذي شَهِدَ أحداثًا اجتماعيَّةً هائلة، وكانَ العملُ الذي حَظِيَ بالموافقة الرسميَّة يلتزمُ الترتيبَ الذي أَقَرَّهُ الرسول، كما أنه لم يَتِمَّ الاهتمامُ في البداية إلا بأطول سَبْعِ سُوَر" .(Abu Al-Ela, 1991)

وهكذا ادَّعى الاستشراقُ غموضَ قضيَّة تاريخ جمع المصحف الشريف، وضَعْفَ الأخبارِ الواردة في ذلك، وتأخُّرَ عناية المسلمين بالجمع والتدوين، ولذلك _بزعمِه_ فُقِدت من القرآن الكريم فَقَرات، وسَقَطَتْ منه آيات، وزيدت فيه أخرى! وأقبل الاستشراقُ على دراسة المصحفِ الذي جُمع في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فتكلَّم قادحًا في كَفاءة زيد بن ثابت رضي الله عنه ناهضًا بما قد كُلِّف به من تتبُّع القرآن من العُسُب واللِّخاف والصُّحف وغير ذلك، وانتقل بعدُ للكلام على الجمع الثاني المبارك الذي كان في عهد عثمان بن عفان، مُشكِّكًا في نيَّة عثمان فيه، طاعنًا في صنيعه لمَّا أحرَقَ بقيَّةَ المصاحف، قادحًا في قيمة المصحف الإمام من جهة رسمِه، واستيعابِه للمنَزَّل الموحَى به. وتصدَّى الاستشراقُ إلى قضيَّة ترتيب المصحف الشريف، مُبْديًا رأيَه بخصوص إعادة الترتيب وَفْقَ نزول آي الذكر الحكيم، مُعَلِّلًا ذلك بعدَّة أدلَّة صَحَّحَها النظرُ عندَه"(Rustam, 2011) ثم عَكَفَ كلُّ واحدٍ من المستشرقينَ على إيجاد ترتيب جديد للقرآن، ضمنَ الترتيب النزوليِّ، على اختلافات بينَهم في ذلك، كما سَنُبَيِّنُه لاحقًا.

ويعزو بعض المستشرقين أسبابَ تمسُّك المسلمين بالترتيب المصحفيِّ وتعصُّبِهم له، وإعراضِهم عن الترتيب النزوليِّ إلى أصلهم العربي الذي لا يؤمن بالتنظيم والترتيب، فهذا المستشرق البولوني (كازيمرسكي) "(Zarkali, 2002) يقول: "يبدو لي أننا نبحث عن تفسير لهذا في زمن بعيد جدًّا، والواقع هو أنَّ غياب روح الترتيب والتنظيم جِدٌّ واضحٌ عند العرب، وهو التفسير الحقيقي ... بالتأكيد لا يمكن أن نطلب من أصحاب محمد منذ أكثر من 1300 سنة تَبَنِّيَ نظريَّةٍ علميَّةٍ للترتيب، ولكن آنَ الأوانُ لتركِ نظامِهم"(Rustam, 2011) .

وتكاد تتَّفِقُ أنظارُ المستشرقين وأطروحاتُهم على ضرورة إعادة ترتيب المصحف الشريف ترتيبًا جديدًا، وإنْ وَقَعَ الخلافُ في طريقة ذلك ووسيلتِه، فهذا (هنري ماسيه)(Nasri, 2009) يقول: "إنَّ هذا الترتيب الاصطناعي الذي تبنَّاهُ زيدٌ ورِفاقُه لا يستطيع أن يُرْضِيَ النفوس المفكِّرة"" ,Rustam) (2011 . وعدَّ (سيمون جاركاي) المستشرق الفرنسي القرآنَ الكريمَ كتابًا فوضويًّا متناقِضًا، وعلى هذا الأساس قال: "لا بُدَّ من قراءة القرآن معكوسًا بمعنى أنْ نبدأ من الأخير""(Rustam, 2011)

المبحث الثاني: دوافعُ المستشرقين لترتيب القرآن وَفْقَ النزول

للمستشرقين دوافع شتى من تبنِّي فكرةِ ترتيب القرآن حسب نزوله، تتبَثِقُ كلُّها من فكرة أصيلة، هي التشكيكُ بالقرآن الكريم الذي هو مصدر الدين الإسلامي؛ فإذا دخل نفوسَ المسلمين الريبُ تجاه رسالة الله لهم؛ فإن هذا من شأنه تشكيكهم بصحَّة القرآن ومصدريَّتِه؛ الأمرُ الذي سيُضْعِفُ هَيْبَةَ القرآن في نفوسهم، ويقلِّلُ من أثره عليهم"(Al-Sabaei, 2001) ومن الأسباب التي دفعتهم إلى التمسك بهذا المنهج:

أولًا: القولُ بتاريخيَّة النصِّ القرآني

من أهمّ الدوافع التي تطالعنا في هذا الشأن قضية (تاريخيَّة النص) التي ذهب إليها العديد من المستشرقين وتلامذتهم ومن تأثر بهم، ويقصدون بتاريخيَّة النص: أن القرآن الكريم عبارةٌ عن نصوص، جاءت لتخاطب مرحلة محدَّدَة من مراحل البشرية، فليس للآيات مدلول شُمُولِيٌّ للأزمان والأمكنة، بل مدلولها ومُفادها إنما كان تنظيمًا لمرحلة زمنيَّة مُعَيَّنة، نَقَلَتْها الآياتُ من حضيض الجهالة إلى قِمَّة العلم، وليس باستطاعة تلك الآيات أن تعملَ العملَ نفسَه مع كل الأزمنة والبيئات؛ لأنها لا تناسِبُها. "(Taan, 2007)

وهذا هو المطلوب الرئيس، إشعارُ المسلمين أن آيات القرآن بأوامره وزواجره ونواهيه إنما جاءت متلائمة مع أهل الجزيرة العربية في تلك الحقبة التاريخيَّة بالذات؛ لذا فالنّاس في العصور التالية غير ملزمينَ بتطبيق أحكام الله الواردة في كتابه؛ لأنها لم تُوَجَّهْ لهم أصالة، فضلًا عن كونها لا تناسب بيئاتهم المتطوِّرَة؛ لأنَّ هذه الأحكام قديمة لا تتلاءمُ مع عصور الحداثة والتنوير التي تَعُدُّ الأخذَ بأحكام الإسلام نوعًا من الرجعيَّة والتخلُّف، والانسلاخَ عنها نوعًا من التقدُّم والرُّقيِّ الحضاري.

ويسمَّى هذا المنهج بـ(المنهج التاريخاني)، الذي يرى أربابُه –الذين لا يؤمنون بكون الأديان إلهيَّة المصدر– أنّ تفسيرَ النص يجب أن يكون مرهونًا بتاريخه؛ فلا يمكن فصلُ أيِّ نص عن تاريخه، وإلصاقُ النص بتاريخه مُسوِّغٌ للتخلِّي عنه".

فمن هنا وجد المستشرقون في دعوتهم للترتيب النزولي للقرآن سببًا ليقولوا للآخرينَ: إنّ هذا القرآن غيرُ صالح لكل زمان، وما أحكامُ القرآن إلا حلولٌ وقتيَّة لاءمت تلك الحقبة؛ فالقرآن جاء مراعياً لطبيعة العرب ومعيشتهم وحياتهم. وعليه فإنّ أحكامَه تبقى رهينة تلك الحقبة وتلك الظروف، ولا تصلح لأهل الحداثة والتقدم في هذا الزمان؛ فليسَ القرآنُ إذًا صالحًا لكلِّ زمان ومكان. "ودون شكٍّ فإنَّ النتيجة المنطقيَّة لهذا التوجيه لمفهوم تاريخيَّة النص القرآني هي إلغاءُ الطابع المُنَزَّل للقرآن الكريم، وتجاوزُ التعريف الأصولي للقرآن الكريم باعتباره كلام الله المُنَزَّل والموحى به إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثَمَّ إلغاءُ كونه رسالةً إلهيَّة، وخطابًا للعالمين منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. والنتيجةُ الأخرى هي إلغاءُ مرجعيَّتِه في عصرنا هذا ما دام نصًّا مرتبطًا بسياقه، وإنكارُ أيِّ دعوة إلى وجوب التحاكم إليه فيما قرَّرَه من قضايا أو الرجوع إليه للاستنباط منه، استحضارًا لمقاصده أو قياسًا على أحكامه. وفي أحسن الأحوال يبقى القرآن كتابًا للتلاوة والتبرُّك، أو جزءا لا يتجزَّأُ من التراث الثقافي للأُمَّة. (Mohammed, 2003) .

ثانيًا: الطَّعْنُ في مفسِّري الأمَّة بالادِّعاء أنَّ الترتيب النزولي يُعِينُ على فهم القرآن وتفسيره، وأنّ المفسّرين لم يفهموا القرآن بصورة صحيحة؛ لاتباعهم الترتيبَ المصحفي وعدمِ اعتمادهم الترتيبَ النزولي" (Noldke, 2008)

ولا شكّ أنّ هذا ادعاء باطل لا يقوم على شيء؛ لأن القرآن الكريم ميسَّرٌ للفهم ابتداء بشهادة الله: {ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} سورة القمر (17)، فمن ذا الذي يملك تعسير ما يسَّرَهُ الله، ثم إنَّنا أشرنا سابقًا إلى أنّ العلماء لم يفسروا الآيات منعزلة عن أسباب نزولها، وعما صحَّ فيها من تفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سَلَفِ هذه الأمَّة. ثم إنَّ كَوْنَ القرآن رسالةَ الله الخالدةَ للعالمين يقتضي أنَّ البشرَ جميعًا بشتَّى مراحلهم العمريَّة أو العلميَّة يتمكَّنُونَ من فَهْمِه، كلٌّ حسب إمكاناته واستعداداته.

ثالثًا: التهوينُ من شأن الترتيب المصحفي، والادِّعاءُ بأنه مُخِلٌّ بحكمة التدرُّج في التشريع (Noldke, 2008 & Muir, 2006)

وقد أجاب دراز عن هذا الدافع مُبَيِّنًا أنّ هذا القولَ "يدلُّ على غفلة عظيمة، وخلطٍ بين مقامين مختلفين: مقام التنزيل والتعليم، ومقام التدوين والترتيل، وهما مقامان قد وُضِعا من أوَّلِ يوم لتحقيق غرضَيْن متفاوتَيْن، فكان أوَّلُهما يعتمد حاجات التشريع، وثانيهما يرتبط بحاجات الوضع البياني. وإن مراعاةَ إحدى الحاجتين في موضع الأخرى، ليس من الحكمة في شيء، بل هو وضع للأمور في غير موضعها (Draz, 2004) .

وذكر لذلك مثالا ليُوَضِّحَ فكرتَه فقال: "رجل يريد أن يبتني بيتًا لسكناه، فجعل يجتلب تباعًا كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته، غيرَ مُبالٍ بأن يشتري أجزاء العرش والسقف قبل الأسس والجدران، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء، مُتَتَبِّعًا في كل ذلك فرصة توفُّرِ الثمن لديه، ووجود الموادِّ في السوق، وسهولة وسائل النقل، إلى غير ذلك من ظروف احتياجه، وضروب إمكانه، فهل من الحكمة أن يضع البنّاءُ هذه الأجزاء في البنيان على حسب تاريخ ورودها؟ أو الواجبُ أن يضع كل جزء منها في مكانه اللائق به، وفقًا لرسم هندسي معلوم، مهما خالف ترتيبه الزماني؟ كذلك كان نزول القرآن منجَّمًا على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم، ورُوعيت في ذلك حكمة التدرُّج والترقِّي في التشريع على أحسن الوجوه وأكملها، ولكنَّ هذه النجوم في الوقت نفسه لم تترك مُبَعْثَرَةً منعزلًا بعضُها عن بعض، بل أُريدَ لها أن تكون فصولًا من أبواب اسمُها (السُّوَر)، وأن تكون هذه الأبواب أجزاءً من ديوان اسمُه (القرآن)، فكان لا بدَّ أن يُراعَى في مواقعها من هذا البنيان معنًى آخر غير ترتيبها الزماني، بحيث يأتلف من كل مجموعة منها باب، ويأتلف من جملة الأبواب كتاب، ولا يكون ذلك إلا إذا أُلِّفَتْ على وجه هندسي منطقي بليغ، تبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالًا وإحكامًا عنها في وضعها الإفرادي التعليمي"(Draz, 2004) .

رابعًا: نفيُ الإعجاز عن القرآن الكريم

إذ من المعلوم أن القرآن الكريم مَعين الإعجاز ومنبعه، ومن صور الإعجاز الظاهرة في القرآن التناسب بين سُوَرِه، وبين مطلع كلِّ سورة وما قبلها، وخاتمة كلِّ سورة وما بعدها. والقولُ بالترتيب النزولي يُبَعثِرُ فكرة الترتيب المعهود، وينقض ركنًا من أركان الإعجاز المتمثل في تناسب السُّوَر فيما بينها.

فالقرآنُ "من أهمِّ المعجزات الشاهدة على رسالة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام بل هو أبقى المعجزات وأبينُها، ومعلوم بالبداهة أن حسن الترتيب من أكبر محاسن الكلام البليغ، ونحن نعتقد بأن القرآن معجزٌ، فهل نرضى بأن يكون عاريًا عن حسن الترتيب والتناسق؟! وكيف نترك النظر في فهم ارتباط معانيه وتناسق آياته وسوره وإتقان ترتيبها؟ والله عز وجل أمرنا بتدبر هذا الكتاب الكريم فقال: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} [النساء 82]" (Hariri, 2007) وإذا أمعن البليغ أو المنصف في كتاب الله، وَجَدَ اتساق أوّله بآخره، وتناسب سوره فيما بينها.

وفي ذلك يقول الزرقاني: "القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذٌ بعضُه برقاب بعض في سوره وآياته وجُمَلِه، يجري دمُ الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمْط وحيد (Ibn Manzoor, 1414AH) وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نُظِّمَتْ حروفُه وكلماتُه، ونُسِّقَتْ جُمَلُه وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوَّلِه، وبدا أوَّلُه مواتيًا لآخره ... محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف البدايات والنهايات... فقد خَرَقَ العادةَ في هذه الناحية أيضًا: نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا، ولكنه تَمَّ مترابطًا مُحْكَمًا، وتفرَّقَتْ نُجومه تفرَّقَ الأسباب، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شَمْلِ الأحباب، ولم يتكامل نزولُه إلا بعد عشرين عامًا، ولكن تكامل انسجامُه بداية وختامًا." . (Zarqani, WD)

ولا غرابة، فهو من لدن حكيم خبير، أنزله مُنَجَّمًا ملائمًا للأحداث، ومواكبًا للحاجات. وفي ذلك يقول دراز: " إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جُمِعَتْ عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مُفَرَّقَةً عن جَمْع؛ كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قُدِّرَتْ أبعادُه، ورُقِّمَتْ لِبناتُه، ثم فُرِّقَ أنقاضًا، فلم تلبث كلُّ لَبِنَةٍ منه أنْ عَرَفَتْ مكانها المرقوم، وإذا البنيانُ قد عاد مرصوصًا، يشدُّ بعضه بعضًا، كهيئته أوَّل مرَّة "(Draz, 2005 & Fadal, 2000) .

وهذا الذي يعتقده كلُّ مؤمن، سواء وَعَى حكمة ذلك أم لم يَعِهَا؛ فالمؤمن بالله منزِّلِ القرآن يؤمن أنه سبحانه كتب مقادير الخلق وكلَّ ما سيجري إلى قيام الساعة، ومن ذلك بعثة نبينا صلى الله عليه

وسلم، وكتابُه الذي أرسله به، فهو لم يكن وليد اللحظة بحسب الحوادث، ولا طارئًا بحسب الظروف، بل هو من لَدُنْ علَّامٍ للغيوب، ومَنْ كلُّ شيء عنده بمقدار.

يقول جلغوم: " فأما الحكمة من هذا الترتيب –أي ترتيب القرآن على نحو مغاير لترتيب نزوله– فذلك ليكون في الزمن الذي يكتشف فيه، وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الدالة على مصدر القرآن، وصدق الرسالة، بلغة تتناسب مع تقدُّم العلوم والمعارف. وخطابًا يصلح لمن ليست العربية لغته ....وعلى أي حال، فإن الوصول إلى رأي صحيح في مسألة ترتيب القرآن والحكمة منه، لن يكون إلا بدراسات تنطلق من القرآن نفسه، لا من الروايات التي يعارض بعضها بعضًا. وحينئذ يكون الحكم في هذه المسألة للقرآن الذي وصلنا محفوظًا بتعهُّدٍ من الله سبحانه، وليس إلى تضارب الأقوال والاجتهادات".

خامسًا: إثباتُ تحريف القرآن

تكاد كلمة المستشرقين تتَّفِقُ "على أنَّ هذا المصحف الذي وصل إلينا، ليس هو القرآن الكريم بنصِّه الكامل الذِّي أُنزل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، بل إنَّ ما جمع في عهد أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان قد سقطت منه أشياء، فضاعت من الوحي نصوص، كان من المفروض وجودها في المصحف الحالي، ومن بين هؤلاء المستشرقين القائلين بهذا الرأي، المستشرق الفرنسي (هنري ماسيه) الذي يجاهر بذلك صراحة، ويقول:"إن القرآن كما وصل إلينا لا يتضمَّنُ الوحي كله"(Rustam, 2011) وهذه دعوى قديمة جديدة يتبنَّاها أعداءُ كل عصر فقد روى الباقلاني ما نصُّه: "وزعم قوم من الرافضة أن القرآن قد بُدِّل وغُيِّر، وخولف بين نظمه وترتيبه، وأحيل عما أنزل إليه، وقُرئ على وجه غير ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وأنه قد زيد فيه ونُقص منه، وقال بعضهم: قد نُقص منه ولم يزد فيه، ... وأننا لا ندري لعل الذي في أيدينا من القرآن أقلّ من عُشر ما أنزله الله تبارك وتعالى، وأن الداجنَ والغنم قد أكل كثيراً مما كان أُنزل وأُوجِبَ على الأُمَّة حفظُه وضبطه"(Al-Baqalani, 1422AH) .

سادساً: من أهمّ الدوافع لدى المستشـــرقين في دعوتهم للترتيب النزولـــي الدافـــعُ النفســـي؛ (Muir, 2006) ذلك أنه تبيّن لعلماء نقد الكتاب المقدس أنّ هناك اضطرابًا في بِنْية كتبهم المقدّسة (التوارة والإنجيل)؛ مما جعلهم يفقدون الثقة بها وبصحة نسبتها لله عزّ وجل، الأمرُ الذي حمل كثيراً

من المستشرقين على إسقاط ما توصّلوا إليه من نتائج على القرآن وتاريخه بهدف إسقاط قداسة القرآن والتشكيك بمصدره. والمنهج الذي سلكه المستشرقون في هذا الأمر يسمّى (المنهج الإسقاطي).

المبحث الثالث: الإشكالاتُ المُترَتِّبَةُ على ترتيب القرآن وَفْقَ النزول

عندما نحاول سبر فكرة الترتيب النزولي وتقويمها علميًّا لنحدد صوابها من عدمه، نجد أنها هَشَّةٌ لا تصمُدُ أمام التحقيق العلمي، بل يترتّب على الأخذ بها جملةٌ من الإشكالات العلمية التي تدفعُ إلى رفضِ هذا الترتيب وعدم قبوله على الإطلاق. ومن أهمّ الإشكالات التي تظهر من التزام هذا الترتيب والأخذ به:

أوّلاً: عدمُ وجود مستنَدٍ صحيح يُعْتَمَدُ عليه في ترتيب القرآن نزوليًّا

إنّ أوّل اشكال في هذا الأمر أن هذا القول لا مستند له، فليس فيه حديث مرفوع ولا حديث صحيح يثبت الأمر. فجميع "الروايات والآثار التي ذكرت ترتيب نزول سور القرآن الأوّل فالأوّل لا مجال لقبولها سندًا ولا متنًا، .... ولا يصحُّ الاعتماد على هذه الروايات والآثار في تغيير ترتيب كتاب الله، ولا في تفسيره، ولا في ترجيح تقدُّم سورة على أخرى، ولا مكي ولا مدني بل الجزم بنفيها والالتزام بما تواتر عن سلف الأُمَّة من ترتيب المصحف"(Rababah, 2010) فالوارد في ترتيب السور فضلًا عن ضعفه مختلفٌ عددًا وبدءًا وختمًا؛ ولهذا فإنَّ مقتضى التحقيق عدمُ الاعتداد بشيء من الروايات الواردة في ترتيب سور القرآن نزولا.

ثانيا: الرواياتُ الواردة في مسألة ترتيب السور القرآنية ليس فيها رواية صحيحة مرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلًا عن كون الروايات المنسوبة لبعض الصحابة غير صحيحة وغير شاملة لجميع سور كتاب الله؛ ومن المعلوم أنّ ترتيب السور القرآنية لا يؤخذ بالرأي، بل يحتاج إلى رواية صحيحة. وأشهر الروايات الواردة في ذلك هي الروايات الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ إذ ورد عنه ست روايات موقوفة عليه، وجميع أسانيدها لا تُقْبل؛ لأن فيها مُتّهَمينَ بالكذب ومجاهيل، وهذا يُشعر بأنها موضوعة ومكذوبة عنه، فضلًا عن كون متونها مختلفة متفاوتة، فلم يجتمع الرواة عنه على ترتيب واحد. كما أنّ هناك فرقاً بين الروايات المنسوبة له وبين ترتيب مصحفه(Rababah, 2010) .

أما الرواية الواردة عن سيدنا علي رضي الله عنه وهي رواية مرفوعة –وقد جعلها بعضهم أساسًا في هذا الموضوع مع أنَّ كتب علوم القرآن لم تجعلها كذلك– فالإسناد ضعيف جدًّا، بل الرواية لا أساس لها من الصحة من حيث السند. أما متنُها، ففيها أخطاء غير مقبولة، فضلًا عن أنَّ فيها بعض ما يناقض غيرها من النصوص الثابتة المتعلقة بنزول القرآن عقلًا ونقلًا، إضافة إلى نقص بعض السور فيها(Rababah, 2010).

وقد درس بعضُ الباحثين جميع الروايات الواردة في ترتيب النزول وخرج بنتيجةٍ مُفادُها أنَّ: "الروايات والآثار التي ذكرت ترتيب نزول سور القرآن الأول فالأول لا مجال لقبولها سندًا ولا متنًا، .... ولا يصحُّ الاعتماد على هذه الروايات والآثار في تغيير ترتيب كتاب الله، ولا في تفسيره، ولا في ترجيح تقدُّم سورة على أخرى، ولا مكي ولا مدني، بل الجزمُ بنفيها والالتزام بما تواتر عن سلف الأمة من ترتيب المصحف"(Rababah, 2010)

ثالثًا: عدمُ اتفاق المستشرقين على ترتيب واحد للقرآن

على الرّغم من مناداة المستشرقين لإعادة ترتيب القرآن وفق نزوله إلا أنّهم لم يتفقوا على آليَّةٍ واحدة ومنهج واحد في ذلك؛ وكان هذا هو الخللَ الأبرزَ، والدليلَ الأوضحَ على نقض دعواهم، وبطلان مناهجهم. فمثلا: نجد المستشرق (فايل) Akiki, 1964) يجعل تأريخ نزول الآيات والسور ضمن أربع مراحل، ووفق ثلاثة معايير. وتتلخَّصُ هذه المعايير في الاعتماد على الوقائع التاريخية المعلومة من مصادر متعددة، ومحتوى الآيات التي تشير إلى وظائف النبي، وأسلوب القرآن (القالب الشكلي للألفاظ). ثم هو يُقَسِّمُ السورَ إلى أربع طوائف: ثلاث منها مكية وواحدة مدنية. الأولى: من بداية البعثة إلى هجرة الحبشة، والثانية: من هجرة الحبشة إلى رجوع النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الطائف، والثالثة: من عودته من الطائف إلى الهجرة للمدينة. والرابعة: الفترة المدنية، وحدّد لكل مرحلة من هذه المراحل خصائص للسور النازلة بها. والناظرُ في هذه الخصائص يرى أنها عامَّة أغلبيَّة؛ لذا لم يَخْلُ هذا الترتيب من نقد (Iskandarloa, WD) .

أما (نولدكه)(Akiki, 1964) الذي يعدُّ مرجعاً للعديد من المستشرقين في هذا الموضوع فقد قَسَّمَ سور القرآن أيضًا إلى أربع مراحل، معتمداً معايير (فايل) ذاتها، جاعلًا المراحلَ أيضًا ثلاثًا قبل الهجرة، وواحدة بعدها، ذاكرًا لكل مرحلة خصائص معيَّنَة. وقد جعلَ من هذه الخصائص ذاتها سبيلًا

للطعن في القرآن كلّه –على حَدِّ زعمه– وليس فقط في ترتيب سوره وآياته. حيث يذكر أنّ سُوَرَ المرحلة المكيَّة الأولى تشير في أغلبها إلى اضطراب الرسول –صلى الله عليه سلم– وانفعاله، وتشبه أقوال الكهنة الغيبيَّة، وتستخدم القَسَمَ مثلَهم، وتتحدَّثُ عن الجنة والنار بأوصاف واضحة، وبأسلوب مؤثر، ثم أشار إلى صعوبة تحديد تأريخ دقيق للسور. وهذا ينقض مبدأه من الأساس.

وجعل من خصائص المرحلة المكية الثانية قِلَّةَ أسلوب التخيُّل، وقلةَ الاضطراب عند النبي– صلى الله عليه وسلم– وأنَّ القَسَمَ صار في أوائل السور فقط، وجعل جاذبيَّة الوحي في هذه المرحلة، واعتبر الفاتحة من سور هذه المرحلة.

أما المرحلة المكية الأخيرة عنده، فقد امتازت بالأسلوب النثري وغلب على فواصل آيها (ون \ ين)، وقلَّ فيها أسلوبُ التمثيل، وغلب عليها الأسلوبُ الخطابي، وكثرت فيها قصص الأنبياء، وطالت آياتها. وجعل (نولدكه) هذه الخصائص لهذه المرحلة مظهرًا لغضب النبي صلى الله عليه وسلم من أفعال قبيلته. أما سور المرحلة المدنية، فتشبة سور المرحلة المكية الأخيرة، فهي تمتاز بالفصاحة وخصوصًا الآيات التي تخاطب المجاهدين المؤمنين، وتوضح تبلور القدرة الاجتماعية السياسية النبوية، وفيها آيات التتشريع والأحكام والأحوال الشخصية والاجتماعية، وكل ما يُنَظِّمُ شؤون الفرد والمجتمع وعلاقة المسلمين فيما بينهم ومع غيرهم(Iskandarloa, WD) .

أما (جريم)(Akiki, 1964) ، فقد حاول ترتيب القرآن بناء على الأفكار، ووفق تطوُّر القضايا والمواضيع الدينية، وقد شارك (نولدكه) في تقسيم المرحلة المكية إلى ثلاث مراحل، مع اختلاف المضمون والخصائص نوعًا ما بحسب القضايا التي حَوَتْها كل مرحلة(Badawi, 1998).

أما (موير) (Badawi, 1998)، فقد نحى منحى آخر؛ إذ قَسَّمَ السور المكية إلى خمس مراحل. الأولى: ما نزل قبل التكليف ثم أقدم السور حتى إعلان الرسالة، ثم من إعلان الرسالة إلى السنة السادسة للبعثة، ثم من السادسة حتى العاشرة للبعثة، ثم من العاشرة حتى الهجرة، ثم المرحلة المدنية. ويتمثل خلَلُه إذا قُورِنَ بغيره في التحديد الزمني الدقيق لترتيب السور دون دليل يُذكر (Badawi, 1998) .

أما (رودويل) (Akiki, 1964) الذي قام أولًا بترجمة القرآن، فقد زعم أنَّ كلَّ السور فيه مُرَتَّبَةٌ وفق الترتيب الزماني لنزولها. وسار في ترتيبه على ترتيب (نولدكه) مع بعض التعديلات على المرحلة المكية الأولى، ولكنه ذكر مجموعة من الآيات في بعض السور غير متناسبة من حيث

الطول مع مواضعها؛ مما جعله يدّعي أنَّ هذه السور ليست في مكانها الأصلي، ولكنها أثناء جمع القرآن في عهد عثمان –رضي الله عنه– وضعت فيه من باب التعديل، وما ذاك إلا لسوء فهمه، وقلة بضاعته، وعدم إنصافه(Iskandarloa, WD).

أما (بلاشير) (Badawi, 1998)، فقد نَظَّمَ السُّوَرَ في ترجمته وفق ترتيب ارتآه؛ إذ تبنَّى ترتيبَ (نولدكه) بعد أن أجرى عليه بعض التعديلات، بتقديم وتأخير لبعض السور في بعض مراحلها، وعلّلَ ذلك بأنه جَمَعَ السور المتشابهة في موضوعاتها في المرحلة نفسِها، ثم رتّب هذه الطبقات بشكل متتالٍ بالاعتماد على التشابه فيما بينها، وباعتماد سَيْر رسالة النبي –صلى الله عليه وسلم – كما جعل للمراحل خصائص كانت واقعيَّةً بعض الشيء، ومقاربةً للصواب بالمقارنة مع غيره (Iskandarloa, WD) .

أما (ريتشارد بيل) (Omar, 1992)، فقد استعرض محاولات مَنْ سبقه عادًّا محاولةَ (نولدكه) أصوبَها وأكثرَها قَبولًا. معترفاً في نهاية عرضه أنَّ التوصل لترتيب زمني شامل أمر صعب لا يُدرك؛ لذا اقترح وضع مبادئَ عامَّة، يتمُّ من خلالها الترتيب، فجعل الأسلوب هو المعيار؛ إذ ليس ثَمَّةَ مرجعٌ زمنيٌّ صحيحٌ مُعْتَبَر(Badawi, 1998)

فالأمرُ غيرُ قابل للضبط، وقد اعترفَ (ريتشارد بيل) بذلك، فكان ردُّ دعواهم بلسانهم، فضلًا عن كونه متحقِّقًا بفعلهم غيرِ المنضبط. ومثلُ هذا ما قاله عكرمةُ لابن سيرين قديمًا "لَوِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى أَنْ يُؤَلِّفُوه ذلك التَّأْلِيفَ مَا اسْتَطَاعُوا (Suyuti, 1394AH) .

وتعليقًا على أعمال المستشرقين في ترتيب القرآن على النزول يقول الدكتور صبحي الصالح:

"ومن الغريب حقًّا أن يظنَّ المستشرقون أنَّ في وسعهم ترتيبَ القرآن زمنيًّاً، وهم يجحدون كُلَّ أثر للرواية الصحيحة في هذا الترتيب، ولو كانوا يتشدَّدُونَ في الروايات فلا يقبلون منها إلا المسندة الصحيحة لهان الأمر, فإن علماء الإسلام أنفسهم كانوا –ولا يزالون– يرفضون الأخذ بالروايات الضعيفة في المكي والمدني وغيرهما من الموضوعات التي تلقي الضياء ساطعًا على تتبُّعِ مراحل الوحي القرآني، وترتيب سوره وآياته، وتدرُّجِ تعاليمه وإرشاداته، على أنَّ بين المستشرقين من حاول أن يبحث هذا الموضوع على صعيد لا يختلف كثيرًا عن صعيدنا، كالأستاذ غريم ... الذي اعتمد على الروايات والأسانيد الإسلامية في ترتيب سور القرآن، ويؤخذ عليه مع ذلك أمران: أما أحدهما

فعدم تمحيصه صحيحَ تلك الروايات وسقيمَها، وعجزُه كسائر المستشرقين عن هذا التمحيص، ولذلك لم يُبالِ بترتيب القرآن على أساس واهٍ من الأسانيد الضعيفة أحيانًا والباطلة أحيانًا أخرى. وأما الآخرُ فهو تَخَلِّيهِ عن المنهج الذي اشترطه على نفسه من احترام الروايات، ليصدُرَ في نهاية المطاف _في مواطن مختلفة_ عن رأي المستشرق نولدكه في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القرآني" (Saleh, 2000).

ويُرجِعُ بعض الباحثين أسباب التفاوت والتباين في موقف المستشرقين من ترتيب السور القرآنية إلى الأسباب الآتية(Omar, 1992) :

أ. عدمُ اعتماد المستشرقين في عملهم على الصحيح من الحديث النبوي، والسيرة النبوية، ومن اعتمد من المستشرقين ذلك فقد خلط بين الصحيح والضعيف والموضوع، مع العجز عن التمييز بين الغثِّ والسمين.

ب. جهلُهم بالعربية ممّا جعل بعضهم لا يستطيع تصنيف الآيات تحت موضوعات معيّنة

ج. جهلُهم بالأهداف التربوية والحِكم التشريعيَّة التي من أجلها نزلت الآيات القرآنية.

د. اعتمادُهم على المرجوح من أقوال العلماء بل على المرفوض عند المحقِّقين منهم.

رابعًا: إنَّ فتحَ باب إعادة ترتيب السور وَفْقَ نزولها قد يؤدِّي إلى فتح بابٍ آخرَ أشدَّ خطرًا على كتاب الله العزيز، وهو أنْ يَتْبَرِيَ بعضُ المتطفِّلينَ على القرآن فيطالبوا بإعادة ترتيب الآيات وَفْقَ نزولها، وفي ذلك من التحريف والتشويه لنظم القرآن، وإفسادِ حُسْنِ ترتيبِه ورصف آياته، ما لا يقول به إلا جاهلٌ ببيان القرآن وإعجازه ، أو ماكرٌ يريد أن يأتي على بنيان الإسلام وأركانه"

خامسًا: من المقرَّر عند أهل العلم أنَّ العلم يقومُ على حقائقَ منضبطة، ومنهجيَّة واضحة؛ فلو فرضنا جدلًا أنَّ كتاب الله غيرُ مرتَّب، وأردنا أن نجعل له ترتيبًا فلا بدَّ أن يكون ترتيبًا علميًّا دقيقًا ذا قواعد منضبطة؛ ومنهجية واضحة؛ لئلا يكون هناك شُبهةٌ لكل متربِّص، أو ريبةٌ لكل جاهل. وحتى لا يبقى القرآن موضع عبث من كلِّ حاقد. وقد ذكرنا سابقًا أثناء الحديث عن محاولات المستشرقين ترتيب السور القرآنية أنّ إعادة ترتيب القرآن وفق الترتيب النزوليِّ أمرٌ غيرُ ممكن، فضلًا عن كونه غير منضبط.

وفي ذلك يقول سيد قطب: "وعلى كل ما في محاولة تتبُّع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة، ومن مساعدة على تصوُّر منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإنَّ قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقًّا، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصَّل إليها تقريبيَّة ظنيَّة، وليست نهائيَّة يقينيَّة.. وقد تترتب على هذه النتائج الظنيَّة التقريبيَّة نتائجُ أخرى خطيرة.. لذلك آثرتُ في هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره في المصحف العثماني، مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة" (Sayed, 1412AH) .

سادسًا: يرى بعض المستشرقين وغيرهم أنَّ الفائدة من الترتيب النزولي هو مواكبة مراحل الدعوة والتدرُّج في تبليغ الرسالة الخاتمة على وفق ما كان عليه الوضع أيام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مما يجعل عمليَّة فهم القرآن أكثرَ سدادًا وصوابًا من فهمها وفق الترتيب المصحفي. يقول دروزه في مقدمة تفسيره: "رأينا هذا يتَّسِقُ مع المنهج الذي اعتقدنا أنه الأفضل لفهم القرآن وخدمته. إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنًا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدقّ، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جوِّ نزول القرآن، وجوِّ ظروفه ومناسباته، ومداه ومفهوماته، وتتجلَّى له حكمة التنزيل."(Drouza, 1383AH)

ولا يُسَلَّمُ لهم بهذه الدّعوى، وعلى فرض كون هذا يتناسبُ أحيانًا مع فهم بعض الآيات من خلال الإحاطة بجوِّ نزولها، ومعرفة سبب النزول وما إلى ذلك إلا أنَّ هذا الأمرَ غيرُ ضروري في فهم جميع الآيات والسور، فضلًا عن كونه غير ممكن؛ فعلينا أن نكون مدركين وواثقين أنَّ اللهَ تعالى حين أراد لهذا الكتاب أن يكون خاتم كتبه إلى خلقه، وأراد أن يكون رسالته الخالدة للعالمين، أرسله مُصْلِحًا لكل زمان ومكان، مُنْفَكًّا عن بيئةٍ بذاتها، أو فترةٍ بعينها، أو جماعةٍ مخصوصة؛ فلو أنّ جماعةً من الناس لم يصلهم من الكتب إلا القرآن، فقاموا بدراسته بنفسه دون أيِّ مؤثِّرٍ من المؤثِّرات، ودون اطّلاعٍ على أيَّةِ ملابسات، لما وجد هؤلاء عائقا في فهمه، وإدراك مراميه وأهدافه، والوقوف على أحكامه وحِكَمِه.

ثم إنّ العلماء حين يفسرون الآيات والسور القرآنيَّة يتعرَّضون لأسباب نزولها الصحيحة، وما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأنها –إن ورد ما هو صحيح– ويدرسون سِباقَها وسياقَها، فهذا أمرٌ لا يَعْتَمِدُ على ترتيب السور نزوليًّا ألبتَّة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إذا دقَّقْنا النظر

بما ينادَى به، كان الأولى إعادةَ ترتيب الآيات وَفْقَ نزولها لا السور؛ فهذا الذي يُبَيِّنُ تدرُّج الدعوة لا ذاك، وهذا مستحيلٌ، فضلًا عن كونه لم يجرُؤْ أحدٌ على طلبه صراحة.

سابعًا: إنَّ إعادة ترتيب السور وفق النزول يُلْغِي فكرة المناسبة بين السورة وسابقتها ولاحقتها في ترتيب القرآن الكريم، فـ"كثيرٌ من علماء التفسير أثبتوا المناسبة بين السور، ومن هذه المناسبات المناسبةُ بين خاتمة السورة وافتتاحيَّة ما بعدها، وهذه أمارة قويَّةٌ تُرَجِّحُ الرأي الذي يقول بأنَّ الترتيب الحاليَّ توقيفي. ويعد هذا اللونُ من التناسب وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني."

فعلمُ المناسبات علم أصيل لا يمكن الاستغناء عنه، وهو رافد أساس من روافد إعجاز القرآن الكريم، وهو علم قد أفنى فيه الأوائل أعمارهم وجهدهم، وتلقَّتْه عنهم الأُمَّةُ بالقبول؛ فلا يُعقَلَ أنْ تُلْغِيَ علمًا قائمًا بذاته لأجل فكرة لا أساسَ ولا دليلَ ولا مُسَوِّغَ لها.

يقول د. مجلي ربابعة: "فائدة الترتيب المزعوم تبعث على إفساد نظم القرآن، وذهاب رونقه، ولذة تدبُّره، والتعبُّدِ بالبحث عن الروابط بين سُوَرِه، فلو أنَّ كُلَّ من عقل شيئًا من العلم أراد ترتيب القرآن وفق هواه، لما عدنا نجد القرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ولتحصَّل لدينا مجموعةٌ من اللآلئ لا ينظِمُها خيط، ولا تفصِلُها فرائد، وهذا خلاف حكمة العليم الخبير الذي قال: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لـــدن حكيم خبير} هود1-2}" (Rababah, 2010)

ثامنًا: إنَّ دعوة المستشرقين لإعادة ترتيب القرآن وفق النزول نابعةٌ من أهداف نفسيَّة ودينيَّة خاصَّة بهم، وهذا قد أدّى بهم إلى أن يسوقوا الاحتمالات العقليَّة مساق الحقائق المسلَّمة، وأن يجمعوا الآراءَ والظنون والأوهام والتصوُّرات، ويَعُدُّوها أصلًا للفحص والدراسة، لقضايا من أخطر القضايا في الإسلام.

يقول عبد الصبور شاهين: "وآفةُ المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقليَّة مساق الحقائق المُسَلَّمَة، ويقيسون الماضي الذي لم يكن جزءًا من تاريخهم، وبالتالي لم يكن من مكوِّنات ضمائرهم بمقياس حاضرهم مع تباين المكان والزمان، والعقليَّة والروح، وآيةُ ذلك أنهم يَغُضُّونَ أبصارهم عن الطّابع الميتافيزيقي، الذي نشأت في ظلِّه أحداثُ التاريخ القرآني على عهد النبوة، ويرفضون مناهج المسلمين في نَقَدِ الأخبار ورواتها(Abdul Sabour, 2007) .

الخاتمة:

في ختامِ هذه الدراسة يُسَطِّرُ الباحثونَ أهمَّ النتائجِ التي توَصَّلُوا إليها:

أوَّلًا: إنَّ علماءَ الأُمَّة مجمعون على عدم جواز تغيير ترتيب المصحف؛ فهو ترتيبٌ توقيفيٌّ تَلَقَّتْهُ الأُمَّة بالقبول. وهو مظهر من مظاهر إعجاز القرآن.

ثانيًا: إنَّ المستشرقينَ لا يعترفونَ أبدًا بهذا الترتيبِ المُصْحَفيِّ، ويُشَكِّكونَ في صحَّتِه، ويزعُمونَ أنَّه ترتيبٌ مُصْطَنَعٌ فَوْضَوِيٌّ غيرُ متناسق!!

ثالثًا: إنَّ الدعوة إلى إعادة ترتيب سور القرآن وآياته لم تكن عند المتقدِّمين، بل بدأتْ بذورُها في الخطابِ الاستشراقي المعاصر.

رابعًا: إنَّ المستشرقينَ كانتْ لهم دوافعُ متعدِّدَة وراء الدعوة لإعادة ترتيب القرآن وَفْقَ النزول، تدور معظمُها حول نَزْعِ قداسة القرآن، والطعن في مصدره وإعجازه.

خامسًا: إنَّ من أعظم المخاطر المُتَرَتِّبَة على إعادة ترتيب القرآن وَفْقَ النزول إفسادَ نَسَقَ القرآن وبنائه المُحْكَم.

سادسًا: إنَّ دعوةَ المستشرقينَ إلى إعادة ترتيب القرآن وَفْقَ النزول تنطوي على إشكالاتٍ كثيرة، منها: عدمُ وجودِ مستَنَدٍ صحيحٍ يُعْتَمَدُ عليه في ترتيب القرآن نزوليًّا، ومنها أنَّ فتحَ هذا الباب قد يُؤَدِّي إلى فتحِ بابٍ آخرَ أشدَّ خطرًا، وهو المطالبةُ بإعادة ترتيبِ الآياتِ وفقَ نزولِها، ومنها أنّ إعادة ترتيب القرآن وفق الترتيب النزوليِّ أمرٌ غيرُ ممكن، فضلًا عن كونه غير منضبط.

سابعًا: إنَّ محاولاتِ المستشرقين لإعادة ترتيب سُوَرِ القرآن اتَّسَمَتْ بانعدامِ المنهجيَّة العلميَّة المنضبطة، والجهلِ الواضح بعلومِ الإسلام ومناهجه.

ونختِمُ هذا البحثَ بكلمة (دراز) تأكيدًا لكلِّ ما سبق ذكرُه، إذ يقول: "إنَّ الدعوة إلى تغيير ترتيب السُّوَر دعوة لا يُقِرُّها عقل ولا نقل؛ لأنها قبلَ كلِّ شيء دعوةٌ إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين، يُحَرَّفُ بها الكَلِمُ عن مواضعه التي وضعه الله فيها، ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفسادُ النسق، وتشويهُ جماله، ونَقْضُ بنيانه المُحْكَم الوثيق، ثم لأنه فتحُ بابٍ للشُّبْهَة في حفظ الذِّكْر الذي ضَمِنَ اللهُ حفظَه؛ فهي إذًا دعوةٌ لا يُستَجابُ لها، ولا يجوزُ أنْ يُمَكَّنَ أحدٌ من تحقيقها"

Reference:

Abdul Sabour, Shahin (2007). History of the Quran. Edition 3. Nahdet Misr for printing, publishing and distribution.

Abu Al-Ela, to Mohammed Hussein. (1991). Quran and illusions Orientalist. Edtion1. Cairo: Almaktab Alearabiu Lilmaearif.

Akiki, Najib (1964). Orientalists. Edition 3. Part 2. Egypt: Dar Al Ma'arif.

Al-Ani, Mullah Hweish (1382AH). Statement of meanings, Par 1. Damascus: Al-Tarki Press

Al-Baqalani, Muhammad Ibn Al-Tayeb (1422AH). Alaintisar lilqura. Investigation: Mohamed Essam Al Qudah, First edition. Part 2. Beirut: Dar Al Fath, Amman, Beirut: Ibn Hazm House

Al-Midani, Abdul Rahman Hassan (2009). Rules of optimization. Edition 4. Damascus: Dar Al-Qalam

Al-Sabaei, Mustafa (2004). Orientalism and orientalists what they have and what they have. Dar al-Warraq, the Islamic Office.

Al-Zarkashi, Badr Al-Din Muhammad Ibn Abdullah (1394). Al'iitqan fi eulum alquran. Investigation: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. Part 1. Dar Iihya' alturath alarab.

Al-Zayyat Ahmad et al. (WD) Medieval Dictionary, (Arabic Language Complex), Part1. Cairo: Dar Al Dawa.

Badawi, Abdel Rahman (1993). Encyclopedia of orientalists. Edition 3. Beirut: Dar aleilm lilmalayin.

Badawi, Abdel Rahman (1998). The defense of the Koran against critics. Editon 1. Cairo: Madbuli Alsaghir.

Beni Amer, Mohamed Amin (2004). Orientalists and the Holy Quran. Edition1. Amman: Dar Al Amal for Publishing and Distribution.

Brockelmann, Carl (1977). History of Arabic Literature, Abdel Halim El Naggar. Edtion 5. Part1. Dar Al Ma'arif

Bukhari. M. (1422AH). Sahih Bukhari. First Edition. Part 6. Investigation Mohammed Zuhair bin Nasser Al-Nasser. Dar Tuq Al-Najah.

Drauza, Mohamed Ezzat (1383AH). Altafsir alhadith, Part 1. Cairo: Dar Iihya' alturath alarab.

Draz, Mohammed (2005). The great news new looks in the Koran, cared for by: Ahmed Fadila, presented to him: Abdel-Azim Al-Mutani, Dar Al-Qalam for publication and distribution

Draz, Mohammed Abdullah (2004). Hassad Qalam. Collection, preparation and investigation: Mustafa Fadila, review and presentation: Abdel Sattar Said, Cairo: Dar Al Qalam.

Fadal, Abbas (1430AH). Itqan alburhan fi eulum alquran. Second Edition. Part 1. Amman: House of Appreciation.

Hariri, Hikmet (2007). Proportionality in the style of the Qur'an. Retrieved: http://midad.com/article/196081

Ibn Al-Atheer (1979). Alnihayat fi ghurayb alhadith wal'athr, investigation: Taher Ahmed Al-Zawawi, Mahmoud Mohammed Al-Tannahi. Beirut: Almaktabat Aleilmia

Ibn Manzoor, M. (Died. 711 AH / 1311 AD) (1414AH). lisan alearab. 3th. Part1. Beirut: Dar Sader.

Ibrahim Awad (2003). Orientalists and the Qur'an - A study of the translations of the French Orientalists of the Qur'an and their views on it. Edition 1. Cairo: Zahraa Al Sharq Library.

Iskandarloa, Mohamed (WD). The History of Quranic Verses and Verses in Orientalist Studies Criticism and Analysis. Journal of Oriental Studies, No. (3)

Jabri, Mohamed Abed (2008). Fahuma alquran alhakim, the clear interpretation in descending order. Edition 1. Beirut: Center for Arab Unity Studies, Beirut.

Mohammed, Ytam (2010). Historical text and reasons for descent. Retrieved: wNews.php?Tnd=9687.

Muir, William (2006). The Quran, its teachings, and its testimony to the Scriptures, translated by Malik Muslimani.

Musem, I. (Died 261 AH)(WD). Sahih Muslim. Investigation: Mohamed Fouad Abdel Baqi Beirut: Dar Iihya' alturath alarab.

Nasri, Ahmed (2009). Ara' almustashraqin alfaransiiyn fi alquran dirasatan naqdia. Edition 1. Rabat: Dar Al Qalam.

Noldke, (2008). The History of the Qur'an. Edited by Friedrich Shafali, translated by George Tamer et al. Baghdad: Camel Publications, Cologne (Germany).

Omar, Radwan Ibrahim (1992). Orientalists' views on the Qur'an and its interpretation, study and criticism. Edition 1. Part 1. Riyadh: Dar Tayibat.

Rababah, Mohammed (2010). Interpretation of the Holy Quran According to the Descending (Source and Benefits). Studies Journal: Sharia and Law Studies, 37 (1).255-268.

Rustam, Mohamed bin Zine El Abidine (WD). The collection of the Koran between the hatred of orientalists and modernists. Retrieved: http://vb.tafsir.net/tafsir29441/#.WCawSvorKUk

Saleh, Subhi (2000). Research in the Sciences of the Qur'an. Edition 24. Dar aleilm lilmalayin.

Sayed, Qutb (1412 AH). Fi zilal alquran. Edition 17. Part 3, Beirut, Cairo Dar El Shorouq.

Suyuti, Jalaluddin Abdul Rahman bin Abi Bakr (1394 e). Mastery in the sciences of the Qur'an, investigation: Mohammed Abu Fadl Ibrahim, Part1. Egyptian General Book Authority

Taan, Ahmed (2007). Secularists and the Qur'an (historical text). Part 1. Rabat: Ibn Hazm House.

Tabarani, S. (Died 360H)(1415AH). Almuejam Al'awsat. The investigation: Tarek bin Awadallah and Abdul Mohsen al-Husseini. Cairo: Dar Al-Haramain.

Taha, Abidin Taha (2012). Tartib suar alquran, an analytical study of the words of scientists. Journal of Quranic Research and Studies, King Fahd Complex for Printing the Holy Quran, Issue 9, Year 5, 6.

Zarkali, Khairuddin (2002). Al'aelam. Editon15. Part2. Dar aleilm lilmalayin.

Zarqani, Mohamed Abdel Azim (WD). Fountains of gratitude in the science of the Qur'an, Editon 3, Part 1. Press: Issa Al - Babi Al - Halabi.

Zubaidi, Mohammed bin Mohammed Al-Husseini (Died-1205) (WD). Taj aleurus min jawahir alqamws, Investigation of a group of investigators, Part 2. Dar Al-hidaya.